عطيات الأبنودى..

رائدة سينما الغلابة

لم أكن أعرف أن الفنانة التى تابعتها لسنوات – وأنا صبية – فى عدة برامج إذاعية، منها "ربات البيوت"، وبرنامجى المفضل "من الحياة" الذى كان يخرجه ديمترى لوقا، ويمهد له بصوته المميز، فأترك كل شيء حتى المذاكرة لمتابعة البرنامج.. لم أكن أعرف أنّها هي الفنانة عطيات عوض، أو المخرجة عطيات الأبنودى.

أحببت هذه المرأة المصرية، التى حرصت على طابع المرأة الريفية فى زيها: الجلباب الفلاحى بألوانه الزاهية المبهجة، مع بعض التغييرات البسيطة، تبعًا لتغير المناسبات: الحلق المخرطة، الفضة بدلًا من الذهب، الأساور الفضية العريضة، الكحل البلدى الذي يزيد عينيها اتساعًا وجمالًا، الشعر المتروك على سجيته دون أصباغ، ابنة قرية السنبلاوين الناعسة فى حضن الدلتا، تتصدر صورها وأخبارها الجرائد والمجلات، أذكر حديث الناقد السينمائى– المفضل لدى – سامى السلامونى – عن فيلمها الأول" حصان الطين" الذى نال شهرة عالمية، وحصل على أكثر من ثلاثين جائزة، ألتقى بصاحبته ثلاث مرات: مرة فى مؤتمر الرواية بمكتبة القاهرة الكبرى، بدا أنها جاءت تلبية لدعوة إحدى الكاتبات العربيات المشاركات فى الجلسة، جلست فى الصف الثانى رغم أن الصفوف الأمامية بها

أمـاكن شـاغرة، وفـى يـدها نوتـة صـغيرة تـدون فيهـا ملاحظـات، لا تشـارك الجالسـات بجوارهـا أحـاديثهن الهامسـة، وإن أصـاخت السـمع للجالسات على المنصـة، تبدى ملاحظـة رائعـة، وتعقب علـى أخرى، أدركت أنـها ناقدة لفن الرواية باقتدار.

فى المرة الثانية التقيتها – بعد سنوات – فى شارع قصر العينـى، نفـس "الاسـتايل" فـى الملابـس، علـى كتفهـا شـنطة مـن قمـاش قلـع المراكب، عليه نقوش فرعونيـة بديعـة، تقف أمام امرأة تعمل "مناديًا" للسيارات، البشرة السمراء، والجسم أكثر نحافة، لكن العينين زادتا بريقًا ولمعانًا.

أما المرة الثالثـة فكانـت فـى مكتب رئيس هيئـة قصـور الثقافـة د. أحمد نـوار. كـان الحديث شـائقًا، شرق وغرب، أعربـت عـن إعجـابى بأفلامهـا، مقـابلًا لضـعف مـا أنـتج آنـذاك مـن أفـلام تسـجيلية، وعـن كتابها الذى أحدث ضجة بعد صدوره، لم ألحظ تقدم السن على المرأة التـى بـدت شـابة ذات روح منطلقـة، وضـحكة صـافية مـلأت وجههـا، فزادته ألقًا.

أحببـت عطيـات الإنسـانة البسـيطة، الواثقـة مـن نفسـها، وإبـداعها، وإصرارها على مغالبة التحديات، لم لا وهى الابنة الوحيدة التى أنهت تعليمهـا الجـامعى، وعملـت فـى أكثـر مـن مجـال، حتـى لا تحمّـل أشـقاءها عبئًـا يفـوق قـدراتهم الماليـة، تنقلـت بـين العمـل فـى تحريـك العرائس، والصـحافة أحيانًـا، والتمثيـل فـى مسـرح التليفزيـون، شـاركت فـي مسـرحية "الشـوارع الخلقيـة" المـأخوذة عـن روايـة عبـد الـرحمن

الشرقاوى، ومسرحية "المصيدة"، وبحس الفنانة أدركت أن التمثيل ليس هو الوسيلة، ولا الهدف، فتركته إلى الإخراج والوقوف خلف الكاميرا، المخرج – في رأيها – هو المبدع الحقيقى، وهو الملم بكل عمليات الإبداع السينمائى، وحتى تعد نفسها للإخراج، فقد التحقت بأكاديمية الفنون، وبعد عام واحد فقط من الدراسة، شرعت فى إخراج فيلمها الأول "حصان الطين". أحدث نقلة كبيرة فى مفهوم السينما التسجيلية، ورغم حصولها على العديد من الجوائز، فإنها واصلت استكمال مشوارها فى دراسة فن الإخراج، اغتربت أعوامًا فى بعثة تعليمية لتعود أكثر دراية ووعيًا وخبرًة تؤهلها لتكون أكبر مخرجة عربية فى مجال السينما التسجيلية.

تتوالى أفلامها، وتزيد الغيرة من نجاح الفلاحة المصرية التى التزمت بتقديم قضايا الإنسان المصرى ومعاناته، منذ فيلمها " حصان الطين". لاحظت ابنة السنبلاوين قمائن الطوب الأحمر المنتشرة على أرض الدلتا، حيث الطين والبشر والعمران المتزايد، الذى يأكل الأرض الزراعية، حصان الطين الذى حكم عليه أن تغطّى عينيه غمامة كى يظل فى عمله هرس الطين مع الماء والقش، خلطة الطين اللبن التى توارثها الإنسان المصرى منذ أقدم العصور، هكذا يشارك الحصان الإنسان معاناته اليومية دون كلل أو ملل، إلى انتهاء يوم عمل شاق، تنزع عن عينيه الغمامة، فيفرّ هربًا من صاحبه، حيث الحرية والانعتاق.

متى يفر الإنسان من هذا الشقاء؟

كان فيلم "حصان الطين" ثورة حقيقية على المفهوم المتوارث للسينما التسجيلية المهتمة بكل ما هو رسمى، أو خاص بالمؤسسة الرسمية، من نشرات أو لقاءات ومشروعات تنموية وافتتاح لإنشاءات، أو تسجيل لأحداث، كإنقاذ معابد فيلة، والبدء بتحويل مجرى النيل، وإنشاء السد العالى، ثم افتتاحه، وغيرها من الأنشطة. جاء فيلم" حصان الطين" ليمس عصب ووجدان الإنسان المصرى، وما يشاركه الحياة على الأرض المصرية، تحولت الصورة إلى مشاعر وعواطف وآلام، نبع هذا التصور من وعيها بالعالم المحيط بها، برؤيتها الثاقبة للسياسة والفن والمجتمع، هذه العناصر خلقت جدليتها الفنية المتنوعة، فعطيات الأبنودى تلتزم بقضايا مجتمعها، عبر خمسة وعشرين فيلمًا قصيرًا، منها: حصان الطين، أغنية توحة الحزينة، سوق الكانتو، الأحلام الممكنة، نساء مسؤولات، الساندوتش، مناظر من لندن، بحار العطش، نساء البترول، عام الوزير مايا، إيقاع الحياة، مفكرة الهجرة، حديث الغرفة رقم 8، القتلة يحاكمون، بطلات مصريات، أحلام الديمقراطية، الشهيد، أحلام البنات، وغيرها.

فى فيلم " سوق الكانتو" (1973) تقدم عطيات شريحة من الفقراء الباحثين عن فرحة مختلسة، وغير حقيقية، فى ارتداء ملابس جديدة، حتى لو كانت مستعملة ومستهلكة، فهى نفايات الآخرين، لكن هؤلاء البسطاء انضم إليهم الآن طالبات المدارس الثانوية والجامعات والموظفون، وبعض الطبقات العليا تذهب صيفًا وشتاءً لوكالة البلح، الكل يبحث عن ضالته فى الملابس المستوردة، حتى لو كانت

مستعملة، نفايات الهند والصين، هكذا لامست عطيات المشكلة منذ أكثر من أربعين عامًا، ثم تفاقمت المشكلة، صار فى كل منطقة سوق للكانتو اسمه سوق المستعمل أو ملابس الوزن!

تقول عطيات الأبنودى: "أنا لم أكن يومًا فى موقع المسئولية، اعتناقى الفكرة يعنى أننى مسئولة عن ترويجها فى حدود ما أملك، وفى اختيارى للسينما التسجيلية مع سبق الإصرار والترصد، آليت على نفسى أن أوفق بين ما أملكه، وما أطمح إليه، الإنسان دائمًا يبحث عن الإمكانيات.

عطيات من المكافحات المصريات، مسيرة حياتها تخبرنا بذلك، الطفلة تنتبه لأمها وهى تصنع لها عروسة من القطن تلعب بها، فتعلّم الطفلة صديقاتها طريقة صنع العروسة، وتشارك أهل القرية فى احتفالاتهم فى حصاد القمح، وتصر أن تصحبها أمها إلى أعراس القرية، تسمع أغنيات الأفراح التي ترددها الفتيات، تظل ذاكرتها عالقة بتلك المشاهد المختزنة من الطفولة، كل ذلك يعينها على استرجاع جو القرية القديم، لتصبح أفلامها وثيقة على زمن ومكان وبشر، منذ أن أصرت على استكمال مشوارها العلمى، ورفض كل ما من شأنه يعطل هذه المسيرة، فبعد حصولها على ليسانس الحقوق، لم تفتح مكتب محاماة، بل أصرت على أن تدافع عن الفقراء والمظلومين بطريقة أخرى، هى الفن الذى أحبته منذ الصغر، التحقت بأكاديمية الفنون، وحصلت على منحة دراسية، وكان من المفترض أن تعين بالأكاديمية، لولا البيروقراطية السخيفة.. كل ذلك لم يفقدها

حماسها للفن، فأبدعت فى مجال السينما التسجيلية، وحصلت أفلامها على حفاوة إقليمية وعالمية، إلى جانب ما حصدته من جوائز.

قدمت عطيات نماذج مشرفة للمرأة المكافحة، لكنها رفضت أن ينضوى إبداعها تحت لواء النسوية المزدهر، والذى تشدقت به بعض المخرجات، فالإنسان لديها، أهم من هذا التقسيم. إنها تدافع عن المرأة المظلومة والرجل المقهور، وكان النجاح الذى حققته عطيات طيلة حياتها هو البلسم الشافى لكل جروح النفس، ظلت تخرج، وتشارك فى المهرجانات والملتقيات، وتحصل على الجوائز.

أيقنت عطيات أن على الشباب أن يطور السينما التسجيلية، مع ظهور تقنيات جديدة كالديجيتال وغيرها.. وظهور مدارس جديدة.

هذا ما ورد فى كتابها الأخير "السينما الثالثة" حيث تقدم كلمتها عن الفن السابع، فتحول تاريخ السينما إلى قطعة فنية، أو إلى فيلم تسجيلى تعيد فيه اكتشاف السينما وأبعادها الجديدة، تطالب بسينما حقيقية لا تخدع المشاهد، وتغرقه فى مخملية الصورة وسحرها، فيتم تخديره، تطالب بسينما حقيقية تمسّ جلد الإنسان وتخاطب عقله، وتهز وعيه، تختار بدقة لا متناهية أفلامًا بعينها، تحللها، وتقيمها فنيًا، فتعطى للقارئ العادى جرعة ثقافة سينمائية مكثفة، تعوضه عن بعض الكتابات الساذجة، أو الرديئة، وهى فى حديثها عن أهم تيارات السنيما العالمية لا تنسى موقع الفنان العالمى شادى عبد السلام فهى تضعه خارج السياق. إنه العالمى، وهو – فى الوقت ذاته – خارج التصنيف.

حين كرمتها الحياة الثقافية قبل الرحيل، نشرت مواقع الاتصال الاجتماعي صورة لها، تجلس على كرسى متحرك، وبجوارها ابنتها، مصدر البهجة فى حياتها، وعلى حجرها حفيدها.

كم كانت تحب الحياة، وتشيع البهجة بين كل من عرفها، وتعطى الأمل للبسطاء من الفقراء والمقهورين!

لقد أبدعت عطيات الأبنودى – بسخاء – فى الفن والحياة.